

القديسة مارينا الراهبة

يوسف حبيب

القديسة مارينا الراهبة

من مخطوطات دير البرموس

---

١٥ مسرى سنة ١٦٨٦

٢١ أغسطس سنة ١٩٧٠

يوسف حبيب

مقدمة

هذه سيرة فتاة قديسة تدعى « مريم » كانت تحيا حياة القداسة والعفاف منذ نعومة أظفارها . كان والداها على جانب كبير من الثراء ، عاشا بتقوى الله وكانا ينشطان إلى البيعة المقدسة كل حين ، فلا عجب إذا نشأت إبنتهما محبة للفضائل المقدسة - تيتمت من أمها « ساره » وهي صغيرة فرباها والدها (أوجانيوس) بالكمال المسيحي ولا سيما أنها الإبنة الوحيدة

واشتاق أوجانيوس بعد وفاة زوجته الى السلوك في طريق الرهبنة المقدس ولكن ماذا يعمل لرعاية ابنته ؟ عرض عليها الفكرة ، كما عرض عليها أن تقيم عند بعض ذويها أو تتزوج إذا كانت راغبة في ذلك . لكنها كاشفته أنها أيضاً لن تريد عن الرهبنة بديلا واتفقا على ذلك وأبدل اسمها إلى مارينـا وتزيت بزي الرجال ، وانطلق كلاهما إلى أحد الديارات وأخبر والد القديسة رئيس الدير انه حضر مع ابنه الشاب مارينـا للرهبنة ، وقبلهما الرئيس وخصص لهما قلاية واحدة يتعبدان فيها ليلا ونهاراً .

تنيح والد القديسة وبقيت وحدها فضاعفت صلواتها وازدادت في نسكها ولم يعلم أحد انها انثى ، واتفق ان رئيس الدير أرسلها مع ثلاثة من الرهبان لقضاء مصالح الدير ونزلوا في فندق للمبيت وكان أحد جنود الملك نازلا فيه في تلك الليلة فأبصر ابنة صاحب الفندق وارتكب الخطية معها ، ولقنها أن تتهم الآب مارينا الشاب بذلك .

ولما ظهرت عليها أعراض الحمل وعرف أبوها أعلنته بأن مرتكب الجريمة هو الشاب مارينا الراهب . فانتقل والدها في ثورة من الغضب والرغبة في الانتقام الى الدير وبدأ يسب الرهبان والرهبنة ، ولما حبلت طرح الطفل لمارينا وانصرف يصب نقمته على الرهبان في كل مكان بما أوتى من قوة .

وكان جزاء الشاب مارينا مختلف صنوف الإهانات والطرد ومعه الطفل ، وبقى زماناً طويلا ملقى على أبواب الدير ، وكان بعض رعاة الاغنام يتحننون عليه ويسقون الطفل القليل من اللبن

وبعدئذ تشفع إخوته الرهبان لدى الرئيس أن يأذن له بدخول الدير على أن يوقع عليه قوانين صارمة للتوبة ، فقبل رجاءهم وادخل الشاب وابنه - ولما كبر صار راهبا - وكانت مارينا تنفذ قوانين التوبة القاسية بكل تدقيق وتقوم

بأشق الخدمات وأقساها وهى صابرة ، وظلت أيام حياتها كلها على هذا الحال ، تلوك الألسنة وتحدث عن صيتهـــا الردىء وماضيها الدنس حتى انتقلت إلى الرب الذى أحبها . وحينئذ فقط إنكشف أمرها وعرف انها انثى .

ويا للبكاء والحزن الذى غشيت سحابته الآباء الرهبان وبالأخص رئيس الدير بسبب هذه الفتاة التى أتهمت ظلماً ، وكم أصاب صاحب الفندق من الدهشة والألم بسبب مكيدة ابنته الساقطة واتهام القديسة باطلا . . .

إن فى تاريخ الكنيسة قصصاً كثيرة عن اتهامات باطلة من هذا القبيل ولكنها كانت تنكشف بعد فترة من الزمن ، طالت أو قصرت ، فى حياة القديسين . أما هذه القديسة العابدة الزاهدة الحكيمة فقد عاشت حياتها كلها فى الدير وخارجه تتألم بالخزى والعار . لا ترى أن تدفع عنها التهمة الشنعاء التى لصقت بها ، ولم تشــأ أن تظهر أمرها وتبرر ذاتها وكانت تستطيع ذلك ولكنها فضلت احتمال صنوف الإهانات عن عن التمجيد والتكريم ، ولا شك انها بذلك تعطينا صورة رائعة وأعظم مثال فى الصبر والاحتمال والتطلع إلى حسن

المجازاة فى الدهر الآتى ، فنرى نقائصنا فى مرآة فضائلها وبرارتها وحكمتها السماوية .

فى هذه القصة درس نافع لنحتمل كل ما يصادفنا من أجل الرب ، نحن الذين نسر ونفرح بالتكريم والتبجيل وأن ينظر الينا بعين الوقار والاعتبار ، ونجزع وتضيق صدورنا إذا جاءتنا ولو كلمة لوم بسيطة ، عندئذ نثور وقد نهجر الكنيسة وقد نكون مخطئين بالفعل . . . لاننا أحببنا مجد الناس أكثر من مجد الله - أما هذه القديسة فعاشت لمجد الله ، أمضت كل أيام حياتها فى انسحاق كامل من أجل الرب لكن فى إشراق دائم وكانت لها الطوبى حسب قول السيد : طوبى لكم إذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل كلمة شر من أجل كاذبين ، افرحوا وتهللوا فان أجركم عظيم فى ملكوت السموات ، وخلصت من ذلك

الانذار الرهيب المخيف - الويل لكم إن قال فيكم كل الناس حسناً .

الرب قادر أن يعطينا الفهم والحكمة لنحتمل كل مايصادفنا من أجل اسمه فى بصيرة نيرة وحكمة ومعرفة . . .

وجسد القديسة موجود بكنيسة الروم بالقاهرة بركة صلواتها تكون معنا آمين .

يوسف حبيب

القديسة مارينـــا البتول

ميلادها ونشأتها :

كان رجل مؤمن غني يخاف الله يدعى أوجانيـــوس ، وزوجته تدعى سارة ، وكانا كلاهما بارين تقيين سائرين في طريق الله بلا عيب ، محبين للبيعة المقدسة ، محبين للصـــدقة والأيتام والأرامل والفقراء والمساكين ، وكانا يتمنيان أن يكون لهما ولد لأنه لم يكن لهما بنون ، وأكثرا الطلبة إلى الله أن يرزقهما ولداً يرث نعمتهما ، لأنهما كانا غنيين جداً ، فقبل الله دعاءهما ورزقهما ابنة اسمياها مريم(١) وربياها أحسن تربية ، وعلماها كتب البيعة المقدسة فشبت منذ نعومة أظفارها على خوف الله ، حتى أن أهلها وأقاربها كانوا يتعجبون من حسنها وجمالها وطهارتها .

(١) الأرجح أنها ولدت في القرن الثامن ببلاد بيثينية كما أيد ذلك صاحب « مروج الأخبار » . ولا بد أن نميز عن سمياتها القديسات ولا سيما القديسة مارينا التي استشهدت في مصر ، ومن الملك التي كانت سوريا لأن هذه القديسة من العذارى الراهبات ولم تكن من الشهيدات . وكان اسمها مريم وعند رهبنتها سميت « مارينـــا » .

حوار مع والد القديسة

كانت منذ صغر سنها تثابر على الصوم والصلاة ومطالعة الكتب الإلهية ، وبعد انتقال والدتها إلى الرب في المظـــال الأبدية عنى والدها بتثقيفها بالعلوم والآداب والحكمة حتى صارت كاملة في كل شيء ، فلما بلغت سن الزواج دعـــاها والدها ، فلما حضرت بين يديه قال لها :

يا ابنتي تعلمين شدة محبتي لك ولوالدتك القديسة وقد رأيت جمالها وكمالها ، وكيف شربت مرارة الموت وغصته وهي نزيلة القبور . نعم ، لقد تغير حسنها وجمالها وخرجت من هذه الدنيا كرها ، والآن يا ابنتي المباركة مارينا الحسنة ، لقد بلغت من العلوم والحكمة والأدب شأواً طيباً ونلت منها ما تصبو نفسك إليه .

والآن قد بلغت سن الزواج وسيؤول هذا المال والأملاك والخدم والماشية إليك . لقد خطر ببالي أن أقسم هـــذا المال ثلاثة أقسام . قسمان لك ولوالدتك وأنا قسم أفرقه على المساكين ، وإني مودعك ومالك وخدمك عند أحد أقاربنا . أو تتزوجين بإنسان مبارك يخاف الله وترزقين منه أولاداً مباركين . فإني زهدت في هذا العالم الزائل وجميع قناياه ولذاته ونعمته التي ليس لها دوام . وسأتوجه إلى أحد الأديرة لكي ألبس الإسكيم

الملائكى وأبكى على خطاياى الكثيرة لعلى أقدر أن أخلص نفسى الشقية وأنجو من سائر الأفكار الرديئة .

فلما سمعت ابنته الطاهرة العذراء القديسة ذلك ، بكت بكاء شديداً ثم ألقت نفسها بين يدى أبيها قائلة له . يا أبى قد خطر هذا الفكر بقلبك أن تخلص نفسك من هذا العالم الزائل وتتركنى وحيدة ، فكيف تأخذ نعمة السماء وتجعلنى أجابه أهوال هذا العالم ؟ بل كيف تطلب الخلاص لنفسك وتتركنى فى ضيقة صعبة مرة ؟ ، ألم تسمع يا أبى ما قاله الكتاب المقدس ان الراعى الصالح يبذل نفسه عن خرافه . . .

ليس حسناً أن تخلص نفسك وتعدها للحياة الأبدية وتورثنى الشقاء والعذاب الدهرى ، أنت الذى قلت لى كيف شربت والدتى مرارة الموت وغصصه وتغير جسدها وجمالها الفائق . . . أما رأيت كيف غير الموت حسنها وما آلت إليه . . . كيف مضت أيامها سراعاً ودب فيها النتن ، وكيف الذين يتمنون القرب إليها يلوذون بالهرب منها . ولو أتيح لها ان تقيم عندنا يوماً واحداً بعد مفارقة نفسها من جسدها لما قدرنا أن نلازمها ساعة واحدة . . . لا أقدر أن أصف لك كيف رحلت من عندنا بغير رضاها . أتريد يا أبى أن أنطلق مثلها وأخرج بغير اختيارى ؟ ماذا ربحت والدتى من هذه الدنيا حتى أرغب فيها

بعدها ؟ . ما ربحت غير الغصص وتعب هذه الدنيا الفانية العابسة . يا أبتاه مالى حاجة فيها .

فلما سمع والدها هذا الكلام بقى حائراً منزعج القلب ولحقه من العجب ما لم يره طول أيام حياته ، ثم قال : ما هذا أيتها الإبنة القديسة الطاهرة ؟ أنا رجل وأمضى إلى دير الرجال الرهبان ، وأنت لا يمكنك أن تدخلى موضع الرجال الذى أدخله ، فأسألك ان تطيعى أمرى وتأخذى ثلثى هذا المال وكامل الخدم والأملاك وأنا الثلث أتصدق به على المحتاجين ، فقالت له القديسة ، بل تصدق بكامل المال عنى وعنك وعن والدتى ، وأما أنا فسأحلق شعر رأسى وأتزيا بزى الرجال وأكون لك تلميذة وأخدمك حتى تتنيح ، فلم يقبل والدها منها هذا فبكت بين يديه بدموع غزيرة واستعطفته إلا يهلك نفسها فى براثن هذا العالم الزائل وقالت له إن أنت تركتنى وتخليت عنى فكل ما يحل بى من الخطايا فهو فى عنقك .

رهبنة أوجانيوس وابنته

فلما سمع أبوها هذا الكلام فرح لأجل رغبتها فى خلاص نفسها من العالم الشرير وخاف لئلا تعجز عن تحمل مشاق الرهبنة . لكن لما تحقق صحة عزمها وزهدها فى العالم بدأ ساعته

وصرف جميع الخدم وتصدق بجميع ماله على الفقراء والمساكين والضعفاء والأرامل والأيتام والمأسورين. وأوقف على الكنائس بعض أملاكه ولم يبق شيء له أو لابنته ثم حلق شعر رأسها ليلا وألبسها ملابس الرجال، وخرجا من منزلهما طالبين رحمة الرب ومغفرة خطاياهما وتوجها إلى الشرق وصليا هكذا:

« اللهم يا رب إنا أخطأنا أكثر من على الأرض، وكما قبلت الزانية وعند اعترافها تركت لها خطاياها، وكما قبلت اللص اليمين قاتل النفوس عند اعترافه لك على خشبة الصليب، وكما صفحت عن بطرس الرسول بعد جحوده إياك ثلاث دفعات. إصفح عنا واغفر ذنوبنا وآثامنا. أنت قلت في الانجيل المقدس إنك تفرح بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين صديقاً لا يحتاجون إلى توبة. ونحن قد تركنا كل شيء وتبعناك بكل قلوبنا. فاقبل يا رب توبة العصاة لأنه ينبغي لك المجد والعظمة مع أبيك الصالح والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهرين آمين ».

ولما أكملا صلاتهما أخذ أبوها بيدها وانطلقا سيراً على الأقدام إلى أن وصلا إلى الدير الكبير، فقرعا بابه وخرج البواب وتلقاهما وسألهما عن حاجتهما. فقال له أوجانيوس إنا قصدنا الإقامة ههنا ونلبس زي الرهبان. قال لهما، اصبرا حتى

استأذن رئيس الدير وأعرفه قصدكما، فدخل البواب إلى الآب وأعلمه بما قالاه له، فقال له الآب دعهما يأتيان إلي، فدخلا وانطرحا على قدمي الآب، فقبلهما الآب بفرح وسرور. وقال لهما مرحباً بالآب الجديد وبالشاب الطوباوي. ثم قبل مارينا وعزاه وسأل الشيخ عن أمره، فقال له يا أبي هذا ولدي يعزيني في وحدتي ويتعلم السيرة المقدسة من آباء الدير، فقبلهما الرئيس وأعطاهما قلاية حسنة(١).

الاختبار والاسكيم

ولما أعلما الرئيس برغبتهما في إرتداء الإسكيم المقدس قال لهما إني أقوم بذلك بعد معرفتكما القوانين أولا بما يلزم للرهبان، فأقاما أياماً ورآهما في الليل قياماً وبالنهار يواظبان على الصلاة والابتهال لله مع صوم كثير. ولدى إختبار الصبية مارينا كانت في العلوم الإلهية كالنهر الجارف وعرف عنها أدب الحديث

١) ذكر كتاب مروج الأخبار أن أوجانيوس ترهب أولا ثم خالجته أفكار كثيرة بشأن ابنته وخاف عليها من تيارات العالم الجارفة فاطلع رئيس الدير على اكتئابه وقال له ان لي ولداً صغيراً في العالم وأخاف عليه وهذا ما تضطرب له نفسي وتحزن ليلا ونهاراً، فقال له اذهب وأت بهذا الولد لتربيه في الدير ففرح أوجانيوس بالاذن وعاد للدير ومعه ابنته وكان الرهبان يسمونها الأخ مارينا.

وبراعة الجواب، وقال الرهبان للرئيس يا أبانا أنت أوصيتنا أن تختبرها ونعلمها، نحن الذين ينبغى أن نتعلم منهما ولا سيما الشاب الصغير الذى ليس له لحية. إن ذكرنا له وصايا من الكتب وجدناها يحفظها، وإن ذكرنا نبوات وجدناه يتلوها، وان ذكرنا الأربعة أناجيل فهو يستوعبها، وما نواجهه، من الكتب فهو يذكره لنا. وهكذا بعد الاختبار وتأكد الآب من طهارة سيرتهما وتعبهما من أجل الرب ألبسهما الإسكيم المقدس.

بعدئذ داوما على الجهاد الشديد والصوم والصلاة بمثابرة والسهر الكثير والمطانيات إلى أن هزلت أجسادهما.

وكانت ماريناً إذا وقفت تصلى مع الاخوة يظنون إن رقة صوتها بسبب كثرة النسك والتقشف وكانت فى البهاء شبه ملاك الرب وذاع صيت قداستها وطهارتها، وصار لذلك الدير اسم عظيم وعرف بهذه القديسة وكانوا يحبونها غاية المحبة.

نياحة والد القديسة

وحدث بعد سبع سنين(١) ان مرض الشيخ المبارك والدها، فأحضرها بين يديه وأوصاها قائلا:

١) ورد فى السيرة بسنكسار René Basset ص ٧٢٣ - ٧٢٦ ان اباها سكن فى قلاية واحدة مع ابنته مريم عشر سنوات.

« يا ابنتى من هذه الساعة - وهى ساعة انتقالى - خفت عليك وقد حذرتك فلم تقبلى، والآن انت تعلمين لأى أمر خرجت من العالم، ولا يخفى عليك شىء، وقد تحقق لديك من كلام الانبياء ومن وعظهم ان مصايد العدو منصوبة وفخاخه مهيأة وتجاربه كثيرة ووشيكة، وحيله دقيقة وفكره قوى والفراكة عظيمة وإنى أخشى من بعض ذلك(١)، وأسألك يا ابنتى بحق تعبى معك وتربيتى إياك وحبى لك ان تجاهدى واطلبى معونة الله دائماً، ولا تفضحى شيبتى بعد خروجى من العالم: فأنا من الآن استودعك يد الرب يسوع المسيح الذى خرجنا على اسمه، ولا اوصيك بأكثر من هذا والرب يكون معك من الآن وإلى الأبد آمين.

ثم طلب إلى الرئيس أن يحضر اليه، فلما حضر وجميع الإخوة قال: « يا أبى الروحانى، الرب يسوع المسيح يكافئك عنى بنعمة الروح القدس، على قدر ما فعلت معى من الخير، ولكن يا أبى الروحانى هذا ولدى الشاب الصبى الوحيد، الضعيف المنفرد، الذى ترك عنه لذات الدنيا وسائر نعيمها ورغب فى ملكوت السموات. الآن أودعه إلى حضن

١) لقد صدق حدس أوجانيوس لكن الله لا يشاء فى النهاية إلا افتضاح حيل العدو.

ربنا يسوع المسيح واليك . فبكى الرئيس والإخوة ، وبعد ان سلمه فى يده تمدد على الارض وأسلم روحه الطاهرة بين خالقها وتنيح بسلام ، وكان قد ظهر له قبل نياحته ملاك الرب قائلا له: طوباك يا أوجانيوس ، قد قبل الله صلاتك وستر ذنوبك وبعد ثلاثة أيام تتنيح وتمضى الى فردوس النعيم وتمكث مع الصديقين فى الفردوس .

ثم ان الاخوة بكوا عليه وكفنوه ودفنوه بغاية الوقار والكرامة باحتفال عظيم ، ولم يزل الإخوة والرئيس ينوحون عليه الى اليوم الثالث .

وبقيت مارينا الطاهرة موضع والدها الجسدانى والروحانى وذاع صيتها فى بقاع كثيرة وبالأخص عن نسكها وطهارتها ومواظبتها على الصلوات ، وأخذ كثيرون من الزوار يترددون على الدير .

ايفاد القديسة فى مهمة خارج الدير

وكانت عادة الدير ان يرسل كل مرة أربعة رجال إلى البلاد المجاورة ليجلبوا الطعـــام . وأراد الرئيس أن يرسل بعض الرهبان لهذا الغرض واجتمع الإخوة عند الرئيس وطلبوا اليه

ان يخرج الشاب مارينا معهم وقالوا له ان هذا الأخ أنار ديرنا ، وهو مصباحنا ، وكان للدير تاج على يديه . . . فلما سمع الآب الرئيس هذا الكلام بكى وقال لا تفعلوا يا أولادى هذا الامر ولا تخرجوا الغصن الغض البهى الصورة ، وقد كنتم حاضرين يوم نياحة والده ورأيتم كيف اودعه الى يد السيد المسيح ولمسكنتى ، ولا يخفى عليكم انه مثل حمل صغير قد يلحقه أذى من بعض الذئاب الخاطفة فيهلك سريعا ، وله سنين كثيرة لم يغادر الدير وأخشى عليه لئلا يوقعه العدو بحبـــله واشراكه وفخاخه المنصوبة المهيأة لمثل هذا الحسن الصورة . فأطيعوا مشورة أبيكم الشيخ يعقوب الذى كان يخاف على ابنه يوسف . . .

لكن الرهبان كانوا يلحون ويرجون ويتوسلون الى الرئيس أن يرسله معهم ، واخيراً أجاب الرهبان إلى سؤال قلوبهم - وقال لمارينا ، توجه مع الإخوة لإحضار لوازم الدير فأجاب سمعا وطاعة ثم استدعى ثلاثة من الإخوة وأنبا مارينا رابعهم وصلى عليهم وباركهم وأرسلهم الى المدينة لقضاء حوائج الدير ، وصنع الرهبان مطانيات للرئيس وانصرفوا لكن الآب كان يخاف بالأكثر على الشاب مارينا .

انصرف الجميع بسلام ومعهم مارينا ولم يزالوا سائرين الى
الى ان وصلوا الى المدينة وفيها التقوا بالأرخن المحترم الذى كان
من عادته أن يضيفهم ، فلما رأى مارينا الشاب صحبتهم فرح
فرحا كثيراً لكنه اندهش من الرئيس كيف سمح بخروج هذا
الغصن الغض ، وحدث بعد هذا انهم طلبوا الى الأرخن أن
يأذن لهم بالانصراف لاداء مهمـــة الدير . قال لهم يا أخوتى
لا تدعوا هذا الأخ يغادر منزلى بل اتركوه عندى حتى عودتكم
بسلام من الله فلما سمعوا ذلك خرجوا وتركوه عنده ورجعوا
بعد قضاء مصالحهم وأخذوا حاجة الدير كالمعتاد .

وحدث أن أقبل رسول لأحد الكبراء فى مهمة ونزل
أيضا فى فندق ذلك الأرخن المضيف للرهبان ، وبينما هو فى
الفندق تطلع الى ابنة صاحب الفندق وخفق قلبه شغفا بها ، فلما
أقبل الليل وكانت الشهوة الشريرة قد سيطرت عليه تماما
ارتكب الخطية معها ولقنها إذا علم بها والدها واستخبر
عن حالها تقول له ان الراهب الشاب الذى أتى من
الدير الكبير صحبة الثلاثة رهبان الذى يدعى مارينا حضر

فى تلك الليلة عينها التى كنت فيها فى الفندق وارتكب هذا الإثم (١)

عودة مارينا مع الرهبان الى الدير

عاد الرهبان مع القديس مارينا وتوجهوا الى ديرهم بشوق
كثير وهم فرحون يمجدون الله الى ان وصلوا الى الدير ، فلما
رآهم الرئيس فرح بهم كفرح يعقوب لما رأى يوسف ثم قال
للاخوة كيف كان طريقكم وكيف كان سلوك أخيكم الحبيب مارينا،
فأثنوا عليه عاطر الثناء ، وسأل مارينا عن إخوته فضرب مطانية
للرئيس شاكراً الرب وأخوته . فشكر الرئيس الرب يســـوع
المحبة القائمة بينهم .

طرد القديسة من الدير

وبعد فترة من الزمن تغيرت حالة ابنة صاحب الفندق الذى
كان مضيفا للرهبان ، ومال لونها الى صفرة ، فلما عاين أبوها

١) ورد فى سيرة القديسة بمنكار René Basset . . . أتفق أن
رئيس الدير أرسل القديسة مع ثلاثة رهبان إلى المدينة لقضاء حوائج الدير
لأنه لم يكن يعلم انها امرأة بل كان يظن ان رقة كلامها لزهدها نسكها ،
فلما مضت مع الرهبان اتفق ان نزلوا فى فندق . . . وأن أحد جنود
الملك نزل فى تلك الليلة فى الفندق فأبصر إبنة صاحب الفندق فارتكب معها
الخطية ولقنها هكذا إذا قال لك ابوك شيئاً قول أن أبا مارينا الراهب
الشاب هو الذى فعل هذا . . . »

خاطا، قال لها ما هذه الحالة التي أراك عليها ؟ أخبريني إن كان بك علة أو مرض فأحضر لك أحد الأطباء يردك الى العافية ، وإن كان غير ذلك القول فما ينجيك الا الصدق ، ونعمتي وافرة والخير لدي كثير ، وما رزقت في الدنيا ســـواك فقالت له يا ابتاه انا اعلم ان الموت والحياة في يدي الله وبيديك ، وانا ما اكتمك أمري فانه في الليلة التي نزل فيها رهبان من الدير الأعظم وفرحت بهم وأمرتني ان أهيء لهم الضيافة وكنت قد تعبت حتى صرت مثل الميتة وما أشعر إلا والراهب مارينا الجميل الوجه قد ارتكب الخطية معي . فلما سمع أبوها ذلك بكى ولطم على وجهه وانتحب وقال ليتني ما أبصرت الرهبان ولا عرفت طريقهم وانطلق فوراً إلى الدير الأعظم ووقف على بابه وصرخ بأعلى صوته قائلا ، ما يحل لأحد ان يكرم راهباً ، فانهم قوم منافقون ماكرون بطالون مراؤون يحسنون يحسنون التظاهر بالديانة الحسنة ، عليهم زي الورع من الخارج ومن الداخل ذئاب خاطفة ، واخذ يتلفظ ألفاظاً كثيرة نابية..

فلما سمع رئيس الدير الضجيج والصراخ قال للرهبان ما هذا الصراخ ؟ فأخبره الإخوة انه صاحب الفندق ، فخرج رئيس الدير مسرعاً وقال له ماسبب صراخك وما هذا الضجيج

ولم هذا السباب ، أخبرني ما خطبك ؟ انك معروف لدينـــا بالوداعة والهدوء والمحبة للرهبان ، ما الذي أصابك ؟ أجاب قائلا هذا جزاؤنا من رهبان هذا الدير الذين نسارع في إرضائهم وقضاء مصالحهم ، قال له الرئيس أعلمني بأمرك فقد شهرت بنا وأكثرت من السباب. أجابه الأرخن صاحب الفندق وقال ، يجب ان اسمعك شرا من هذا فانكم اســـأتم إلى غاية الإساءة . قال له الرئيس يا صاح افصح لي أمرك وماذا دهاك ؟ قال : أولادك حضروا وفرحنا بقدومهم وأكرمناهم احتراما لك ولما استقروا عندنا وبصحبتهم الراهب الشاب الذي يدعى مارينا بالغنا في إكرامهم ولم أر الراهب الشاب سوى هذه المرة ، ولما سألت الإخوة عنه قالوا هذا الشاب الذي تراه ليس كمثله أحد فهو يكثر من صومه وصلاته وانه زاهد في الدنيا وناسك كبير ويرتجي الحياة الآخرة لكن قد تبين أنه ضد ذلك يدعي الصوم في النهار ويرتكب الخطية في الليل . قال له الأب ما هذا الكلام الذي اسمعه منك ؟ قال صاحب الفندق لي ابنة وحيدة كنت أرجو أن أفرح بها قبل الموت فكدرتم حياتي وجعلتموني عاراً وسخرية في أفواه الناس . انهمكت ابنتي في اعداد الطعام للرهبان ، ولما نامت من التعب مثل الميتة

تام الشاب الذى بالغنا فى إكرامه والذى كان الإخوة يشكرونه، وارتكب الخطية معها ولم أعلم عن هذا الأمر شيئاً حتى حبلت وتغير لونها، وهذا جزاء من يخدم الرهبان ويكرمهم.

فلما سمع رئيس الدير هذا الكلام اشتعل غضباً وغيظاً وثار ثورة عنيفة وقال ما الذى استطيع أن أفعله الآن؟ لا أقدر ان أفعل أكثر من طرده وإخراجه من الدير وفرزه من جماعة الإخوة على الفور. لا أقدر أن أعمل شيئاً سوى هذا، وتضرع لصاحب الفندق وسأله أن يكف عن اهاناته.

فلما انصرف الأرخن إلى منزله استدعى رئيس الدير مارينا والثلاثة إخوة الذين كانوا معه وقال له: « يا مارينا ما الذى صنعته فى الفندق الذى نزلت فيه ». قال له يا أبى: « ماصنعت فيه شراً ». قال له الأب: « قد أتى صاحب الفندق وشهر بنا وأخبرنا بالخطيئة الشنيعة التى ارتكبتها مع ابنته والتى كتمت أمرها متظاهراً بين اخوتك بمظهر الحمل الوديع والشاب العفيف المملوء حياء ». فلما سمع مارينا هذا الكلام لم يحر جواباً. فأوضح له الرئيس القضية التى ذكرها صاحب الفندق فصمت. أما الرئيس فانتهره بشدة ووبخه بعنف وقال له أما تجاوب عن قضيتك؟ ... وأعاد الأب سؤال إخوته فأقروا انهم لم يسمعوا عن هذا الأمر شيئاً وأنه مظلوم فى هذا الادعاء ... اعاد الأب سؤال مارينا فأجابه القديس مارينا يا أبى انى شاب فى شرخ الصبا وقد أخطأت(١). قال ذلك بعد ان أصبح إنكاره للجريمة الشنعاء أمراً غيرمقبول لدى الرئيس. ولم يكن أمام مارينا إلا إحتمال الظلم بهذه النفس الراضية وعدم التعلق بسراب العالم وتبرير النفس دون جدوى.

أجهش مارينا فى البكاء أمام الرئيس وأخوته والتمس العفو واعتبر الأب هذا اعترافاً وامتلأ غضباً وأمر الإخوة أن يطردوه ويخرجوه من الدير.

كانت هذه لحظة مريرة قاسية على نفوس الجميع وكان الكل ينوحون ويبكون غير مصدقين وكانوا فى دهشة عظيمة لما

(١) لا شك ان فى هذا التصرف من القديسة حكمة خفية وفلسفة قوية وصبر عجيب وقوة روحية هائلة ـ فقد تشبهت بالسيد المسيح الذى قيل عنه مثل خروف سيق الى الذبح وكشاة صامتة أمام جازيها، هكذا لم يفتح فاه ـ وإن بدا للبسطاء فيه شيء من السذاجة والضعف والخضوع غير اللائق. ما أجمل الصبر لله فيما يرمينا به العالم حين نقصر عن دفعه بقوتنا الشخصية عندما تكون الظروف كلها فى غير صالحنا والكلمة ليست لنا، والله كفيل بنجاتنا وتخليصنا كما يشاء عند الصبر على المكاره. وما أجمل ان نضع الرجاء فى الخالق عند اليأس من المخلوق.

صدره فيه من تقوى وورع وحياء وسيرة طـاهرة ، وهكذا خرج مارينا من الدير مشيعاً بدموع اخوته العزيزة رغم كل تفاصيل قضيته .

الوقوع في يدي الله خير من الوقوع في يد البشر

هكذا احتمل مارينا الخزي والعار والطرد ، وكان على باب الدير صخرة فجلس عليها وزاد في صومه وصلاته أكثر مما كان عليه أولا . وكان كل من يراه ويأتي إلى الدير ويمر به وهو جالس على تلك الصخرة يقاسي برد الشتاء وحر الصيف يقول له ويسأله ما بالك ولماذا طردت من الدير ؟ فيقول لهم انا أخطأت خطية عظيمة فطردوني وأخرجوني بسبب خطيتي وابعدوني عن الدير . . . صلوا عني .

وحدث ان وضعت الفتية ابنة صاحب الفندق طفلا فأخذه أبوها وأتى به مسرعاً إلى الشاب مارينا وألقاه في حجره وقال له خذ الزرع الذي زرعته وانصرف ثائراً .

أخذ مارينا الطفل وكان يطوف به على الرعاة فيشفقون عليه ويقدمون له يسيراً من اللبن . . . وكان مارينا صابراً شاكراً لله ، وأقامت مارينا على هذا الحال ثلاث سنوات .

ولما طالت مدة بقائها على تلك الصخرة اجتمـع الإخوة وتشاوروا فيما بينهم قائلين ، كيف يحل لنا أن نكون في داخل الدير والأخ تحت السماء يقاسي الحر والبرد لا سيما وأن معه طفلا صغيراً وغـداً يسألنا السيد المسيح عن هـذه الخطية ، فاجتمعـوا كلهم ودخلوا إلى الآب الرئيس وقالوا يا أبانا أن الشاب مارينا المظلوم له ثلاث سنوات خارج الدير يجلس على هذه الصخرة صابراً على الحر والبرد ومعه الطفل ، وكل من يسأله يقول له قد أخطأت خطية عظيمة استوجبت بسببها إبعادي عن الدير وفراق الإخوة . وبأي وجه يا أبانا نلقى المسيح يوم القيامة ، وأي جواب نجيبه إذ يسألنا عن أخينا أنبا مارينا ، وطلبوا اليه أن يأذن بدخوله الدير فلم يقبل أولا لكن بعد شدة الإلحاح والتوسل ببكاء كثير ومحبة فياضة اضطر الرئيس لإدخاله الدير فسمح بدخوله .

القوانين الصارمة على مارينـــا

أحضر الإخوة أمام الرئيس فسجد تحت قدميه وبكى بكاء مراً وقال يا أبي صل على لأجل خطيتي فإن خطاياي أكثر من شعر رأسي . قال له الآب يا مارينا لست أهلا أن تدخل من

باب هذا الدير لأجل الخطيئة العظيمة التى صنعتها ، ولكن من أجل الإخوة وحبهم لك قبلتك ، لكن لن تكون فى درجتك الأولى . أجابه قائلا يا ابتاه هذا فضل عظيم وتسامح كبير واشكر الرب الذى جعلنى أهلا ان ادخل ثانية الى ديرى .

عند ذلك أمر الآب رئيس الدير أن يعمل أعمالا كثيرة فى خدمة الدير ، فيطبخ الطعام ويكنس الدير ويسقى الماء وفرض عليه قوانين للتوبة صارمة للغاية حسب ما يستوجبه إرتكاب هذه الخطية النكراء . . وكان مع هذه الأعمال الشاقة يسبق الإخوة إلى البيعة ويشكر الرب كل حين ، وانزل الرب فى قلوب أخوته الرحمة فكانوا يعينونه بعض المعونة إذ يرون الإعياء الشديد والإنهاك باديا عليه .

عماد الطفل

وان انبا مارينا دخل الى الآب وضرب له مطانية وقال له يا أبتاه ، أرجوك أن تعمد هذا الطفل ولا تؤاخذه بخطية أبويه ، فقال له الآب إنه غير مستحق للمعمودية أجاب الشاب يا أبتاه إذا أتى إليك مجوسى أو وثنى وطلب المعمودية أتمنعه منها؟ قال لا . قال الوثنى والمجوسى ولدوا من زنى لأجل كفرهم قال يا مارينا ما هذه المعرفة والحكمة التى عندك ولم ارتكبت

هذه الخطية العظيمة ؟ قال لقد أسقط الشيطان من هو أقوى منى لكنى أرجو ببركة صلواتك أن يغفر الله ذنبى . فأجاب الآب الطالب وعمد الطفل ، ولما كبر حلق رأسه وصيره راهبا وألبسه الثوب والإسكيم المقدس ودعاه افرام . . . وحلت عليه نعمة الله وصار يساعد مارينا فيما فرضه الآب عليه ، وكان يقول لمارينا استرح يا ابى وأنا أقدر منك على تحمل التعب لأنى شاب ولا أخور بسرعة ، وكان مارينا يحبه حبا جما وتعزى به .

وكان بجانب الدير شجرة يستظل تحتها عابروا الطريق وكانت القديسة مارينا فى كل ليلة تملأ المسقاة التى تحتها وتأخذ ما تتناوله من القوت وتعلقه فى قفه لعابرى الطريق وكانت تداوم على التناول من الأسرار المقدسة .

وفى ليلة من الليالى ملأت جرتين وحملتهما وبينما هى ماضية إلى المسقاة وقوتها من الخبز على رأسها لاحظها راهب قس من الإخوة . ولما عادت اغلقت باب قلايتها وبدأت تصلى وتقول : « اللهم احفظ هذا الآب لإمارة هذا الدير المبارك واذكر يارب الإخوة المباركين الذين انقذونى من جلوسى على الصخرة ، أقاسى حر الصيف وبرد الشتاء . وأعطهم أجرا سمائيا وتقبل دعاءهم وصلواتهم » . . ما أطهر هذه الصلاة من أجل رئيس الدير الذى طردها؟ وما أنقى هذا القلب الذى لا يعرف الحقد

ولما كان الصباح دخل القس الى رئيس الدير وحدثه بما رآه واخبره عن أنبا مارينا كيف انه مع شدة التعب الذى يقاسيه يملأ المسقاة فى كل ليلة ويطعم قوته لعابرى الطريق ولا يبقى منه سوى قوت الغلام . وتحدث بما قاله فى الصلاة التى كان منصتاً اليها ، وأردف قائلا يا أبى أرى أن أنبا مارينا برىء من هذه التهمة وسوف تتذكر كلامى كقول الإنجيل المقدس ليس خفى الا ويظهر ولا مكتوم إلا ويعلن . قال الآب الرئيس لا شك فى هذا الكلام إلا أنه لما أخطأ استغفر عن ذنبه .

وأقامت مارينا على هذه السيرة الحسنة مدة ثلاثين سنة(١)

وأما الغلام فصار يعمل بما يفرضه الآب على أنبا مارينا بمحبة وبشاشة وصار محبوباً عند الآب والاخوة؟

---

(١) ذكر Dr. O. Leary فى كتابه The Saints of Egypt ص ١٨٨ انها « مكثت اربعين سنه تواظب على أعمال التقوى فى الدير وخارجه » . ـ وانه وان كانت التجربة التى أصابت القديسة كلفتها اتعاباً كثيرة طول هذه السنين الا أن هذه التجربة كانت لحكمة عظيمه فان الشاهد ان الأعمال المرضيه والاستقامة تؤتى ثمارها الروحية فى هذه الدنيا أيضاً ويظهر نور القديسين أمام الناس ويمجدون الآب فى السموات .

نياحة مارينـــا

ولما انتهت سيرة القديسة المباركة الطاهرة البتـــول وقربت نياحتها وراحتها من هذا التعب العظيم وانتقالها الى الراحة الأبدية ظهر لها ملاك الرب وبدأ يعزيها قائلا : « طوباك يا عروس المسيح ، قد أكملت سيرتك الحسنة ، وبعد ثلاثة أيام تنتقلين إلى النياح الدائم إلى حضن السيدة العذراء والدة الإله عوض تعبك وتفرحين بالعرس السمائى وتنالين الأجر » ، ثم أعطاها السلام وانصرف عنها الملاك .

وان القديسة مارينا ابتهجت وسجدت لله شاكرة على نعمته ، ثم مرضت وانقطعت عن البيعة وصار الولد أفرام يخدمها ويتمم ما فرض عليها وهو يبكى ، وهى تعزيه وتصبره وتعظه من الكتب المقدسة ، فلما توجه الى البيعة استعلم منه الإخوة جميعاً عن سبب انقطاع مارينا عن الذهاب للكنيسة فعرفهم انه مريض فمضى اليه الإخوة فوجدوه مريضا وقد إعتدل فى رقاده الى الشرق فعزوه وصلوا عليه ومضوا الى الرئيس وأعلموه بمرضه فقـــال لاشك انه متعب ، وقد قطعت عليه قوانين كثيرة يقوم بها فأرسل اليه الآب بعض احتياجاته من الأكل والشرب مع أحد الإخوة .

ثم ان مارينا دعا الغلام وقال له : لقد ربيتك وتعبت معك

وقد رأيت سيرتي وأعمالي، وأنا ماض إلى خالقي ووصيتي أن أن تلتزم بالفروض التي أمر بها الآب ولا تتهاون في شيء منها، وكن طائعا للاب والإخوة المباركين ولا تخرج عما يأمرونك به، واحتفظ عليه إن قدرت. وأسأل الله أن يجملك مطيعاً ويؤهلنا للملكوت السمائية. وبعد الوصية اسلمت روحها الطاهرة بهدوء ورفق بغير انزعاج ولا قلق. فصرخ الغلام وبكى بكاء شديداً، ثم أتى اليه جماعة الإخوة وبكوا عليها. وأعلموا الرئيس بنياحة أنبا مارينا وهم في شدة عظيمة من البكاء والنحيب على فراقه، فقال لهم رئيس الدير الحمد لله الباقي وحده ولن يبقى صالح أو طالح إلا ومصيره الى هذه الغاية وهو المجازي لكل إنسان كنحو أعماله.

ثم ان الآب امر الإخوة الرهبان ان يحملوه الى الموضع الذي يغسلون فيه كل من يتنيح. فلما حملوه ومضوا به ونزعوا ثيابه وجدوا انها امرأة فصرخوا جميعاً بصوت واحد قائلين يارب ارحمنا واغفر لنا خطايانا. فلما سمع الآب هذه الضجة العظيمة أتى اليهم وقال ما الذي حدث؟ قالوا ايها الآب ان مارينا المبارك وجدناه امرأة، فلما سمع رئيس الدير هذا الكلام صرخ بأعلا صوته وسقط على الأرض مغشياً عليه، ولما أفاق أخذ يبكي بكاء مراً ويلطم وجهه، فأقامه الإخوة وأتوا به الى حيث جسد

القديسة الطاهرة فنظرها وهي ملقاة وتعجب من ذلك وسجد عند رجليها وقد أكثر البكاء والعويل وغمره حزن شديد وكان يصرخ قائلا اغفري لي يا عروس المسيح، ايتها الشهيدة بغير سفك دم، وكان يطلب الى الله متضرعا قائلا: اغفر لي يا ربي يسوع المسيح، أنا الذي أغواني الشيطان . . . ثم قال لقد أخطأت اليك واذنبت ذنبا عظيما وأوقعتك في المصائب والتعب العظيم الذي لا يقدر على احتماله أقوى الرجال. والله يعلم غرضي من قبلك. وكان قصدي قطع علة الخطية، ولم يزل ساجداً تحت قدميها ودموعه تنهمر على الأرض. أخيراً سمع صوتا من السماء يقول ان الله من قبل رحمته غفر لك بطلبة هذه القديسة.

ثم خرجت من جسد القديسة البتول الطاهرة رائحة أزكى من رائحة المسك، وحملوا جسد القديسة البكر الطاهرة الى دير العذارى وأعلموا الرئيسة بذلك، فحضرت والعذارى وتباركن من جسدها الطاهر.

وأراد الله تعالى ايضاح أمرها وبراءتها وصبرها فحرك صاحب الفندق بالحضور الى الدير لقضاء أموراً. فلما علم الرئيس بقدومه خرج اليه مسرعا فقال له يا أبي ما هذا الجمع العظيم الذي اراه. قال له يا ولدي ان أبانا مارينا تنيح، فأجابه صاحب

الفندق وقال ، لقد أساء الى أعظم إساءة وشوه سمعتي وخرب بيتي وجعلني عاراً وهزءاً بين الناس . فقال له الرئيس يا أخي كف من هذا الكلام وتب الى الله من هذه الخطية التي صنعتها فأنت الذي أسأت اليه وظلمته وغرني كلامك أنا أيضا فعاملته معاملة قاسية ضارية ، وأعلمك الآن أن أنبا مارينـــا لما تنيح وجدناه امرأة وكانت تتزيا بزي الرجال ولم يعلم أحد عنها شيئاً . ثم تبارك منها قبل دفن جسدها الطاهر ، فلما وصلوا الى الموضع الذي فيه جسد القديسة تعجب عجبا شديدا وصرخ وولول وذر التراب على رأسه وانتحب وسجد تحت أقدامها وهو يصرخ ويقول إغفري لي يا عروس المسيح جميع ما فعلت ، فاني قبلت الباطل وصدقت الكلام الرديء بغير علم ، وقد أخطأت في حقك . وان جميع الراهبات قد اجتمعن وكفنها وأمر رئيس الدير كل العذارى والأخوة جميعا أن يوقدوا الشموع ويحملوا أغصان الشجر بايديهم امام سريرها ففعلوا .

معجزات القديســـة

ولما وصلوا الى الموضع حيث يدفن فيه جسد القديسة تقدم أحد الرهبان كان بعين واحدة وقبل الجسد الطاهر ثم رفع رأسه وإذا عينه قد انفتحت وصارت مثل الأخرى فشكر الله سبحانه وتعالى الذي يصنع العجائب بواسطة قديسيه ، وتعجب الحاضرون من هذه الأعجوبة ومجدوا الله مانح العطايا الصالحة لقديسيه .

ثم ان شيطانا تسلط على بنت صاحب الفندق وعلى من ارتكب الخطية معها ولم يزل يعذبهما حتى أتيا الى حيث جسد القديسة وسجدوا تحت أقدامها ، واعترفا بما اقترفاه ووالدها ينظر بعينيه متعجبا مما كان ، وبكيا بكاء شديدا على خطيئتهما . وما ان اعترفا بخطيئتهما حتى خلصا من الشيطان الذي كان يعذبهما ، واصبح قبر القديسة مكانا مكرما يزوره جمع كثير .

أما الآب رئيس الدير فبنى بيعة رائعة على اسمها بجانب قبرها وصاروا يعيدون لها في كل سنة ، ومارس الرئيس منذ هذه اللحظة أعمالا كثيرة في خدمة البيعة وكان دائماً يقول للرهبان باكيا انا قد اخطأت في حق عروس المسيح وأسأت اليها ، فيجب علي أن أخدم بيعتها طول أيام حياتي ، وكان الإخوة في آخر كل صلاة يتشفعون بالقديسة ، كذلك الراهبات العذارى كن يحضرن اليها في يوم عيدها وكانت تجري آيات وعجائب كثيرة .

وأما القس الذي أعلم الآب الرئيس بالقديسة بما تصنع وهي تسقي الماء في كل ليلة لعابري الطريق وتطعمهم قوتها ايضاً ، فقد قال للآب ها انا سبق واخبرتك ان مارينا بريء مما قذف به ، فقال له يا أخي كنت مصيباً في مقالك .

ثم ان الرئيس أحضر الغلام المدعو افرام وخفف عليه أعباء العمل ، وتذكر افرام ما جرى للقديسة من التعب وجلوسها على الصخرة ثلاث سنين وهي صابرة على حـــر الصيف وبرد

الشتاء وازداد فى نسكه وتقشفه فكان يسبق الإخوة جميعاً إلى الصلاة والعبادة وكان يأخذ قوته ويضعه فى وعاء لعابرى الطريق كما كانت تعمل القديسة وكان يداوم على التناول من الأسرار المقدسة، وصنع الله على يديه قوات وعجائب كثيرة من شفاء المرضى وإخراج الشياطين .

وكان الإخوة يفتقدون الصجرة والمسقاة، وما كان الآب الرئيس يسمع ذكر القديسة إلا ويتنهد ويبكى . .

وقد حسبت مارينا مع القديسين وصارت فى مراتب الصديقين وتذكر سيرتها فى الكنيسة ليقتدى آثارها كل من أراد خلاص نفسه

ونحن يا أخوتنا يجب علينا أن نحتمل كل شيء ونصبر على كل شيء ونصنع شبه ما صنعته هذه القديسة التى صبرت طول حياتها محتملة الخزى والعار والمعاملة الصارمة وكانت ترجى النعيم الذى لا يفنى ولا يبلى ولا يتدنس ولا يضمحل .

الرب يجعلنا أهلا لذلك الحظ الوافر والنصيب المتكاثر فى ملكوته السمائية مع هذه القديسة الطاهرة النقية ويعطينا القوة للعمل بمرضاته وحفظ وصاياه ويسهل لنا طريق التقوى بشفاعات ذات الشفاعات معدن الطهر والبركات القديسة الطاهرة مريم وبصلوات القديسة مارينا .

هذا وجسد القديسة مارينا محفوظ الآن بكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم (تبع شرطة الدرب الاحمر بالقاهرة) ويقيمون احتفالا عظيما يوم عيدها الذى يوافق الخامس عشر من شهر مسرى بركة صلواتها تكون معنا آمين .